Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّةِ
Vol. 29/ No. 11/ 2021 المجلد 29/ العدد 11/ 2021

الصُّحبة والصّاحِب: المعنى والمبنى في الشعر الجاهلي

سحر كاظم حمزة المنصوري
قسم اللغة العربية/كلية الآداب/ جامعة بابل
Saharkh78@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 2021/8/13 تاريخ قبول النشر: 29 /2021/8 تاريخ نشر البحث:2021/11/16

المُستخلّص:

تتناول هذه الدراسة مفهوم الصُّحبة والصّاحِب في الشعر الجاهلي من حيث المعني والمبني. وتكمن أهمية الموضوع كونه لم يرصد كظاهرة مدروسة في الأدب العربي القديم وفي الشعر الجاهلي علي نحو خاص علي الرغم من بروز الظاهرة فيه، وأما مشكلة الدراسة التي انبثق منها هذا البحث فهي تكمن في معاينة موضوع (الصُّحبة والصّاحِب) وما يتضمنه من دلالات حقيقية وفنية تتصل بتركيب القصيدة الجاهلية ونسيجها الفني، والهدف من ذلك كله هو رصد تشكلات ظهور الصّاحِب في الشعر الجاهلي وصوره وحصر طرائق البناء ومن ثم الوقوف علي دلالات تلك الفروع والتنوعات الموضوعية والمضمونية، وتتضمن هذه الدراسة جانبين مهمين هما: جانب نظري يمثل رصد دلالات كلمة الصّاحِب ومشتقاتها في المعاجم اللغوية العربية، وجانب إجرائي يتعلق بتمثلات الصّاحِب وتنوعاته وطرائق بنائه ودلالاته في الشعر الجاهلي، وأما منهجنا وأداتنا في هذه الدراسة فهي قد التزمت بـــ (الوصف) و(التحليل) في قراءة دواوين الشعر الجاهلي للكشف عن تجليات الصُّحبة والصّاحِب فيه، ثم ختمنا الدراسة بجملة من النتائج وأهم مصادر ومراجع الدراسة التي كانت ينابيع البحث وأصله.

الكلمات الدالة: الصُّحبة، الصّاحِب، الشعر الجاهلي، الصّاحِب الواقعي، الصّاحِب حيواناً، المعني والمبني، الصّاحِب بناء فنيا.

Companionship and the Companion: Meaning and Structure in pre-Islamic Poetry

Sahar Kazem Hamza Al Mansouri
Department of Arabic Language/College of Arts/ University of Babylon

Abstract:

This study deals with the concept of companionship and companion in pre-Islamic poetry in terms of meaning and structure. The importance of the subject lies in the fact that it was not observed as a phenomenon studied in ancient Arabic literature and in pre-Islamic poetry in particular, despite the emergence of the phenomenon in it. The pre-Islamic poem and its artistic texture, and the aim of all of this is to monitor the formations of the Sahib's appearance in pre-Islamic poetry and its images, and to limit the methods of construction, and then stand on the implications of those branches and the objective and substantive variations.

This study includes two important aspects: a theoretical aspect that represents monitoring the connotations of the word Sahib and its derivatives in Arabic dictionaries, and a procedural aspect related to the representations of Sahib and its variations, methods of construction and connotations in pre-Islamic poetry. In reading the collections of pre-Islamic poetry to reveal the manifestations of companionship and companion in it, then we concluded the study with a set of results and the most important sources and references of the study that were the sources of research and its origin.

Key words: companion, companion, pre-Islamic poetry, realistic companion, the companion is an animal, meaning and structure, the companion is an artistic construct.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

1. مهاد نظري:

1.1 الصُّحبة والصّاحِب في بوتقة اللغة:تواجهنا مادة (صَحِبَ) في دلالتها المعجمية بمعان شتي، فمنها المعاشـــرة والملازمة، إذ إن صَحِبَ: صحِبَهُ يَصْحَبُهُ صُحْبَةً، بالضم، وصَحابة بالفتح، والصّاحِب: المُعاشِر، والجمع أصاحب، وأصاحيب، وصُحبان، وصُحْب، وصَحابة، وصِحابة، والأصحاب، وأما الصُّحبة والصُّحْب فإسمان للجمع، وقـــالوا في النساء: صواحب [1،ج:1 ص519–520]. وأما معني الملازمة، فقد احتمله هذا الجذر اللغوي كذلك، ولاسيما حينما يكون مزيداً بأحرف الزيادة (الألف والسين والتاء). فقد ورد في اللسان أيضاً أن استَصْحب الرجـــل: دعـــاه إلي الصُّحبة؛ وكل ما لازم شيئاً فقد استصحبه [1،ج:1ص520] ؛ فإذا تركت علي الأديم صوفاً أو وبراً أو شعراً، فقد أصْحَبْتَهُ، والقربة المُصْحِبَة، التي بقي عليها شـــيء مـــن صـــوفها [1،ج:1ص521]. والملازمـــة لا تعنـــي بالضرورة المُماثلة أو المُطابقة، بل علي خلاف ذلك تماماً قد تعني المُغايرة والمُخالفـــة أحيانـــاً [1،ج:1ص521]، كما أشار الي ذلك الشاعر بقوله:

إنّ لكَ الفضل علي صحبتي والمِسكُ قد يستصحِب الرّامكا

ومنه أيضاً قولهم: أصْحَبَ الماءُ، أي علاه الطُّحلب والعَرْمَض وغيره من ما عكر صفوه.

وهذه الاشتقاقات جميعها تحيلنا كما أسلفنا الي معني المعاشرة ومن المعاني الأخري التي يتضمنها هذا الجذر اللغوي (صَحِبَ) ويوحي بها، معني الإعانة والحفظ، فالدعاء بالصُّحبة هو في جوهره دعاء بالحفظ، وهذا ما يشير إليه صاحب اللسان بقوله: (والصِّحابَةُ: مصدر قولك صاحَبَك الله وأحسن صحابَتَك، وتقول للرجل عند التوديع: مُعاناً مُصاحباً، ومن قال: مُعانٌ مُصاحَبٌ، فمعناه: أنت مُعان مُصاحب)[1،ج:1 520]، والصُّحبة هنا، قوة ومنعة، والصّاحِب مانع وحافظ لمن يُصاحبهُ، فقد ورد في الحديث الشريف: (اللهم أصْحَبْنا بصُحْبَةٍ وأقْبلنا بذمة)؛ أي أحفظنا بحفظك في سفرنا [1،ج:1ص520].

وقد ورد في الذكر الحكيم، ما هو مُماثل لهذه الدلالة، في قوله تعالي:﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُون) (الأنبياء:43)، أي الكفار لا يُجارون ولا يمنعون، ولا يُصحبون من الله بخير. فالصّاحِب هنا حافظ لصاحبه ومانع له من نزول الضرّ به فيحيطه بعنايته ويدرأ عنه ما يخشي.

ومن المعاني الأخري التي يحملها هذا الجذر اللغوي، هو أن الصُّحبة تغدو علامة علي البلوغ وعلي النضج النفسي والاجتماعي، فالمقدرة علي اتخاذ الأصحاب تعني نضج الإنسان وبلوغه مبلغ الراشدين، وهذا ما نستشفه من قول صاحب اللسان (وأصْحَب: صار ذا صاحب وكان ذا أصحاب، وأصْحَب: بلغ ابنه مبلغ الرجال، فصار مثله، فكأنه صاحبه) [1ج:1، ص520].

والصُّحبة تأتي بمعني الانقياد والإذعان والاستسلام، فقولهم: (أصْحَبَ البعير والدابة: انقادا)[1،ج:1ص520]. والفعل أَصْحبَ، هنا بهذه الصياغة أعطي دلالة الانقياد بعد تذليل صعوبة ما، ومن ما ورد في شعر إمرئ القيس بهذه الدلالة، قوله:

ولستُ بذي رثية إمَّر إذا قِيدَ مستكرهاً أصحبا [2،ص74]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

فالشاعر هنا ينفي عن نفسه كونه ضعيفا فهو ليس يأتمر بأمر أحد ولا يُكره علي شيء فينقاد.

ويري أبو عبيدة أن قولهم: صحِبتُ الرجل من الصُّحبة، وأصْحبتُ أي انقدت له. فالصُّحبة هنا هي استئناس الانقياد بعد ترويض للذات ومفارقة لوعورة الانفراد واستيحاشه، وأصحب َ هنا احتملت الضدين انقاد راغباً وانقاد مُرغماً كذلك.

وفي استعمالات نادرة وجدنا أن كلمة (صَحَبَ) وبعض اشتقاقاتها جاءت بدلالة مضادة لما سلف من معان، أي انها جاءت بدلالة بعيدة عن دلالة المباشرة أو الملازمة والانقياد بل حتي بعيدة عن المعاني الممدوحة التي تُبَر عن الحفظ والإعانة والنضج النفسي والبلوغ، فقد ورد هذا الجذر اللغوي بمعني التباعد والمفارقة، فقد عُبِّرَ عن المجنون بالرجل المُصْحِب، أي من فقد عقله فهو مفارق للرشد والتعقل. وقولهم صَحَبَ المذبوح: أي سلخه، وهو واضح الدلالة علي انفصال الجلد عن جسد المذبوح ومفارقته له. وكذلك قولهم (تصحّبَ من مجالسنا: أي استحيا)[1،ج:1 ص521] بمعني ابتعد عنها أو تجنبها.

ومما انمازت به كلمة (صاحب) ورودها في النداء مرخمة مع كونها مضافة وهذه سمة لهذه الكلمة، فلا يجوز ترخيم المضاف إلا فيها وحدها، وقد سُمِعت عن العرب مرخمة مع إضافتها، فقولهم في النداء (يا صاحِ) بمعني يا صاحبي، وهذه الخصوصية دليل علي القرب النفسي للصاحب من صاحبه.

وقد وردت في لغة العرب ألفاظ عدة مرادفة للفظة (الصّاحِب) مع وجود شيء من الخصوصية الدلالية لكل مفردة من تلك المفردات. فالصديق واحدة من الألفاظ الشديدة الالتصاق بلفظة (الصّاحِب) فالجذر اللغوي لها يشير إلي أنها مشتقة من الصدق نقيض الكذب، فَصَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقاً وصِدْقاً (بالكسر) وتَصْداقاً كذلك، والصّداقةُ والمُصادقة بمعني: المخالة ؛ وصَدَقه النصيحة والإخاء: أمحضه ُ له. وصادَقْتُه مُصادقةً وصِداقاً: خاللته، وتصادقا في الحديث وفي المودة والنصيحة، وقد يقال للواحد والجمع والمؤنث (صَدِيق) [1،ج: 10ص 194-195].

وإن كانت لفظة الصديق يبرز فيها جانب الودّ والتقارب النفسي أكثر من التقارب المكاني الظاهر من لفظة الصّاحِب، فلفظة الصديق تشتمل علي القربين معاً النفسي والمكاني في كثير من الأحايين. ولعل هذا واحد من أبرز الأسباب التي تعلل ورود لفظة الصديق في أشعار الجاهليين وغيرهم نقيضاً ومُقابلاً ضديّاً للفظة أخري هي العدو ّ أو الخصم، فالخصم بعيد عن الصدق والمودة اللتين يمثلهما ويحملهما معاً الصديق.

ومثل الصديق في القرب والمودة (الخليل)، فالخُلة الصداقة والمحبة التي تخللت القلب، فصارت خلاله أي في باطنه، والخليل الصديق يكون في هذه اللفظة الذكر والأنثي والواحدة والجمع، والخلّ الصديق المختص الذي أصفي المودة وأصحّها [1،ج:11ص 216-218].

فالخليل صديق مُقرّب، والصّاحِب كلما قَرُبَ وصفا، وأخلص صار صديقاً ثم خليلاً، فمدار الأمر هنا في الصديق والخليل الجانب النفسي والشعوري والوجداني.

وتأتي لفظة (الرفيق) لتكون في دلالتها وما تشتمل عليه من مضامين أكثر دنواً من لفظة الصّاحِب، فالرِّفق ضد العنف، والمَرْفِق من الأمر هو ما ارتفقت وانتفعت به، وارْتَفقَ تأتي بمعني تَوكأ، والرِّفاق حبل يُشد في عنق البعير إلي رُسْغه، ورافق الرجل صاحبه [1،ج:10ص120]، ورفيقك الذي يُرافقك وهو الصّاحِب في السفر،

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

والرفقة يسمون رفقةً ما داموا معاً منضمين ومجتمعين في مجلس واحد أو مسير واحد، فإذا تفرّق مجلسهم واختلف مسيرهم عندئذ ذهب عنهم اسم الرفقة ودلالته.

ويبدو جلياً لنا تلك الدلالات اللغوية المُستشفة من لفظة الرفيق فهو بعيد عن العنف مأمون الجانب، منتفع به، يُتكأ عليه صاحبه في سفره، وهو حبل يصل به مجالسه، فهو يشترك مع الصّاحِب في الملازمة والانتفاع وتحقق القرب المكاني.

وأما الألفاظ من مثل (القرين، النديم، الخليط)، ف(القرين) من الاقتران، وإذا جمعت البعيرين في حبل واحد تكون قرنتهما، فالقرن الحبل يصل بين شيئين، واقترن به صاحبه، فالقرين هو المُصاحِب [1،ج: 13ص336]. وأما (النديم)، فهو يرافقك ويشاربك في مكان ومجلس مخصوص هو مجلس الشراب دون سواه، فنادم الرجل جالسه علي الشراب [1،ج:12ص572-573]. فالرفقة والملازمة هنا هي رفقة وملازمة آنية ومكانية والقرب فيها مشروط بحال الشرب والمجالسة علي الشراب وهنا القرب المكاني متحصل والقرب النفسي قد يلازم القرب المكاني وقد لا يستلزمه، فكل المنادمين أصاحب ورفقاء وأقران بلا عكس، أي ليس جميعهم أصدقاء وأخلاء.

والشيء نفسه مع لفظة (الخليط)، فهي تحيلنا إلي دلالات المُخالطة والمُمازجة والمشاركة [1،ج:5 ص128] في أحوال وأمور بعينها من مثل الشرب أو الطريق أو ما خلا ذلك. و(الخليطُ) قد يكون فرداً كالنديم والجليس والصّاحِب أو الجار، وقد يكون جمعاً يطلق علي القوم أو الجماعة الذين يجمعهم أمر واحد، وتصدق دلالة الخليط أيضاً علي (القرين) و(الرفيق) و(النديم)، فهم علي حد سواء في الدلالة علي الملازمة والمشاركة والقرب المادي والمكاني.

لذا في ضوء ما تقدّم ستكون رؤيتنا الموضوعية والمضمونية لهذه المفردات في شعر الجاهليين في داخل البحث قائمة ومستندة علي التساوي الدلالي علي حد سواء.

والصّاحِب والصديق ومسمياته الأخري، قد تترجم حاجة العربي الي شبيه أو مثيل، وهذا ما يشير أليه الدكتور علي القاسمي في قراءاته عن إنسانية الفكر في الأدب واللغة، إذ يري أن الثقافة العربية التي يمثل الشعر وجهاً ناصعاً من وجوهها تميل إلي إنشاء علاقات يترجمها التقارب أو المودة أو الصداقة قوامها التشابه والتشاكل[3، ص24]. وقد يكون مفهوم الصُّحبة عند العربي وعند غيره هو تلبية لرغبته بالمشاركة وتحقيق الكثرة التي من شأنها جلب القوة النفسية والمادية ولاسيما عند العربي القديم في ظل مجتمع ينصهر فيه الفرد ويتماهي مع الجمع.

وقد كان في النية تتبع مرادفات لفظة الصّاحِب في الشعر الجاهلي بشكل منفصل مدللين علي ذكر الشاعر لها ومستشهدين عليها بنماذج شعرية وافية، لكننا وجدنا في ضوء ما عايناه من الشعر الجاهلي أن رؤية الشاعر الجاهلي للصاحب رؤية حقيقية واقعية وفنية معاً تضمنت في معظم الأحيان نسيج مرادفات (الصّاحِب) في بنائه الشعري، فمثلا هو يخاطب الصّاحِب والخليل علي حدٍّ سواء في المطلع ويخاطبه كذلك في بقية موضوعات وأغراض القصيدة، وكذا الأمر نفسه مع الصديق والرفيق مع مراعاته لملائمة لفظة النديم في الحديث عن الخمرة. ولكي نتفادي الوقوع في التكرار وضياع الغاية المبتغاة كان العزوف عن تناول المرادفات بشكل منفصل خيارنا، مؤثِرين عرضها من ضمن التداول العام للصُّحبة والصّاحِب.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ولقد تحدثت الدراسات في ميدان علم النفس كثيراً عن أهمية الصُّحبة وحاجة الإنسان إلي الصّاحِب والصديق[4،ص1]، وربطوا ذلك بأبحاثهم عن سمة اجتماعية قارة في طبع وتكوين الإنسان الفطري، وعدم ميله للعزلة غالباً؛ ولكن ما يعنينا من ذلك ما يمثله الصّاحِب عند الإنسان الجاهلي، وما دار حوله من مفهوم الصُّحبة لديه، وما نستطيع رصده من خلال ما أفصح عنه الشاعر الجاهلي وصوره في شعره ومثّله في بنائه الفني الإبداعي في نصوصه الشعرية تلك، وهو ما نأمل أن مقاربته في الصفحات الآتية.

الصُّحبة والصّاحِب في فضاء الإجراء النقدي:

2.1 الصّاحِب الواقعي: ونعني به أن يكون للصاحب وجوداً خارجياً حقيقياً، أي أن الشاعر يتحدث عن صاحب فعلي تجمعه به صحبة ورفقة في سفر أو حضر إنساناً كان أو حيواناً أو طيراً أو جماداً أو أي موجود من موجودات البيئة، بمعني أو بآخر الصّاحِب هنا ليس وسيلة فنية يتوسل بها الشاعر لغايات جمالية أو إبداعية كما سيمر في تبيان ذلك في موضع آخر من هذا البحث.

فمن الصّاحِب الحقيقي؛ الصّاحِب إنساناً، إذ تحدث الشعراء الجاهليون عن أصحابهم في بعض أشعارهم تصريحاً حياً وإلماحا حيناً آخر، وقد حاوروهم ونقلوا أحاديثهم وبثوهم أحزانهم وأفضوا لهم بمكنوناتهم، ورافقوهم في أسفارهم، مُصرحين بأسمائهم أحياناً ومكتفين بنعتهم بالصُّحبة في أحايين أخري.

فهذا السُليك بن سلكة مثلاً يصدّر لنا حديثه مع صاحبيه وهم يحاولون الوثوب والإجهاز علي قطيع جمال يرعاه عبد وأَمة، إذ يقول:

يا صاحبي ألا لاحـــيَّ بالوادي إلا عبيد وآمٌ بين أذوادِ
أتنظران قليلاً ريث غفْلتِهم أم تَعدوان فإنّ الرِّيح للعادي[5، ص87]

ثم يصف لنا ما يبدر من أصحابه من ارتفاع أصواتهم عند ارتقاء المرتفعات وعند إسراعهم في السير، إذ يقول:

وباتوا يظنون الظنون وصحبتي إذا ما علو نشزاً أهلّوا وأوجفوا [5، ص94]

فالسُليك إذن أمام صحب حقيقيين لهم وجودهم البيولوجي والخارجي والواقعي، يتفاعل معهم الشاعر، فصاحبيه هنا هما (عامر وعاصم).

وقد يكون الصّاحِب مدعاة عتاب ولوم شديد، فهذا تأبط شرّاً يصف لنا عتاب زوجته له علي مقتل صاحبه، لنها ظنت انه فكر النجاة بنفسه مخلفا صاحبه قتيلاً وراءه ؛ إذ يقول:

تقول تركت صاحباً لك ضائعاً وجئت إلينا فارقاً متباطنا [6، ص103]

فالشاعر هنا ينقل لنا حدثاً مرتبطا بصاحب حقيقي كان قد غزا معه، وهو ابن عم زوجته. ويتحدث شاعر آخر عن انتفاء الوحشة والإحساس بالوحدة حينما يشايعه صحبه يتبعونه ويرافقونه فيستأنس بوجودهم ولاسيما لو كان بصيرا كالأعشي، إذ يقول واصفا ذلك:

ولكن مَن لا يُبصرُ الأرضَ طرفُهُ متي ما يُشعِهِ الصّحبُ لا يتوّحد [7، ص75]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وبينما نجد ان الأعشي تتبدد وحدته ويزول استيحاشه برفقة أصحاب موافقين له منسجمين معه، نجد شاعراً آخر كامرئ القيس يندب حظّه وسوء طالعه من الأصحاب الذين لم يتوافق او يتآلف معهم، ويشكو كثرة من عاشر من أصحاب مخالفين لا يدوم ودّهم، ولا يحفظون عهده، متقلبين، غير صادقين معه، ويقول فيهم:

إذا قُلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُهُ وقرتْ به العينانِ بُدّلتُ آخرا

كذلك جدّي ما أصاحب صاحبا[2، ص97] من الناس إلا خانني وتغيرا

فالصّاحِب الحقيقي لا يعدو كونه صاحب صادق الصُّحبة يعطيها حقها من صدق الود ونقاء السريرة وحفظ العهد كصاحب الأعشي أو صاحب متلون لا يحفظ عهد ولا يثبت علي ودٍّ يخلف شرخاً في نفس صاحبه كصاحب امرئ القيس. وبين هذا وذاك يظل الشاعر الجاهلي حفيّاً بوصف تلك المواقف التي تجمعه بصحبه في العادة تلك المواقف التي تتردد بين الفرح كوصف صحبته في سفرهم وتصوير مشاهد الشواء واجتماعهم عليه، كقول امرئ القيس:

وظلّ صِحابي يشتوونَ بنعمةٍ يصفون غاراً باللكيك الموشقِ [2، ص137]

وبين الحزن الذي يجمعهم أو يصيب أحدهم، كقول الشاعر:

أتاني وأصحابي علي رأسِ صبعٍ حديثٌ أطارَ النومَ عني فأنعما [2، ص167]

وفي تلك النماذج الشعرية الآنفة الذكر، وجدنا أن الصّاحِب هو صاحب بشري، هو إنسان يصاحب الشاعر تصدق عليه الرفقة والصُّحبة يصفه ويحاوره ويتوجه إليه بحديثه ويقاسمه سفره ومجالس أنسه ويبثه حزنه وقد يمدحه أو يشكو منه، فتجمعهم حوادث ومواقف شتي. وقد يكون الصّاحِب حقيقيا في وجوده لكنه ليس بشرياً كما أسلفنا وسنفصل الحديث عنه آنفا.

2.2 الصّاحِب حيواناً: في ظل البيئة الجاهلية التي تغلب عليها الفيافي والقفار والمفازات والتي كثيرا ما يقطعها الإنسان الجاهلي في تنقله وسفره وحيداً إذا ما عزّ عليه الصّاحِب والرفيق نجد الإنسان الجاهلي يلجأ في محاولة منه الي تبديد وحشته ووحدته تلك بطلب الألفة من خلال مصاحبة ما حوله من موجودات طبيعية في بيئته بإسباغ ملامح الإنسانية عليها أو إضفاء الأنسنة فيها سواء أكانت حيوانا ام جمادا؟ وهذا ما فعله الشاعر الجاهلي وصوّره لنا وعبّر عنه في أشعاره، وإن كان الصّاحِب البشري الإنساني لا عوض عنه في شعر الجاهليين بطبيعة الحال إلا أن الشاعر الجاهلي يسلي النفس بما يملأ ثغرات الزمن المفتقد إذا لم يتهيأ له الأنس بصاحب حقيقي يصحبه ويشاركه في سفره المتاعب والمشقات أو المتع واللذائذ. وقد تكون مصاحبة الحيوان أو الجماد هي للهروب من متاعب الحياة ومشاكلها أو من صاحب غير موافق له...الخ. وقد تصدرت صحبة الناقة أشعار الجاهليين إذ رافقتهم في تطوافهم في البوادي والمفازات فكانت أنيسا لهم في بيئة موحشة اضطرتهم الي التنقل فيها طلباً للكلأ وتبدل شؤون الحياة، لذلك ظهرت الناقة صاحبا وبديلا موضوعيا لراكبها في أبيات الرحلة وما يتصل بها في قصائد الجاهليين.

فهذا عبيد بن الأبرص يصور لنا انفراده في سفره الذي لم يرافقه فيه سوي ناقته الجسيمة التي تخب في مشيها أي تراوح بين يديها ورجليها في سيرها، إذ يصور ذلك قائلا:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

بل رُبّ ماءٍ وردتُ آجنٍ سبيلهُ خائفٌ جديبُ
قطعتُه غدوةً مشيحاً وصاحبي بادنٌ خبوبُ[8، ص27]

وقوله:

يا ناقة ما كسوتها الرّحل والـــ أنساع رهباً كأنها مجملُ
ويلُ أُمّها صاحباً يُصاحبها معتسفُ الأرض مقفرٌ جِهلُ [8، ص106]

وكذلك فعل الأعشي حينما قطع سفره بناقته السريعة المكتنزة باللحم كركن الجبل، إذ يقول:

فمثلك قد لهوتُ بها وأرضٍ مهامه لا يقودُ بها المُجيدِ
قطعتُ وصاحبي سُرحٌ كنارٍ كركن الرّعن ذعلبةٌ قَصيدُ[7، ص98]

وقوله:

وخرقٍ مَخوفٍ قد قطعتُ بجسرةٍ إذا خبّ آل فوقه ُ يترقرق
هي الصّاحِب الأدني وبيني وبينها مجوف علافيّ، وقِطعٌ وغُرقُ [7، ص181]

فالناقة هي صاحب الشاعر والأقرب هنا ولا يفصله عنها سوي ما يضعه علي ظهرها من قماش ومتاع في مفازة واسعة موحشة مخيفة يخرقها الريح فقط ويقطعها الشاعر وحيدا من دون رفيق سوي ناقته تلك. ومثل هذا نجده عند امرئ القيس فهو يخبرنا عن مصاحبته بجمله الفتي السريع مسافرا علي ظهره قاطعا الأراضي المقفرة، إذ يقول:

قد أقطعُ الأرض وهي قفرٌ وصاحبي بازلٌ شملالُ [2، ص159]

وبعد الناقة والجمل لا يجد الشاعر الجاهلي بُدّاً من مصاحبة الفرس في سفره ولاسيما إذا كان سفره يحتاج الي سرعة ونشاط وخفة حركة التي يحتاجها الشاعر في رحلة القنص والصيد، فهذا زُهير بن ابي سُلمي يصور لنا ذلك بقوله:

وقد أروح أمام الحيّ مقتنصاً قمراً مراتعها القيعان والسنبكُ
وصاحبي وردةٌ نهدٌ مراكلها جرداءُ، لا فججٌ فيها ولا صكك ُ[9، ص82]

فصاحبه في رحلة الاقتناص تلك فرسه الوردة اللون الضخمة الخالية من العيوب التي تصيب أطراف الخيول، ومثله صاحب عبيد بن الأبرص فرسه الذي وصفه بالقوة والانبساط في والانسيابية في الجريان كأنه يسبح في سفره المبكر، إذ يقول:

وقد أغتدي قبل الغطاط وصاحبي أمينُ الشّطا رخو اللبّان سبُوحُ[8، ص47]

ومن الشعراء من صوّر لنا الصُّحبة بين الحيوان والحيوان، كما فعل الأعشي في حديثه عن فرسه وهو يعدو مع صحبه من الأفراس كأنه أنثي ثور وحشي نشيطة، إذ قال:

وكلّ كميت كجذع الخِصا ب يرنو القناءَ، إذا ما صَفن ْ
تراهُ إذا ما عدا صحبَهُ بجانبه ِ مثلَ شاهِ الأرنْ[7، ص308]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وبعد الناقة والفرس صوّر لنا الشاعر صحبة الطير للإنسان فاختار الجوارح منها التي تصاحبهم في ترحالهم وفي غزواتهم او حروبهم ومعاركهم، ولكنها قد لا تحمد صحبتها ولا تؤتمن رفقتها لأنها قد تتحين الفرص لتقتات علي أجسادهم وقد نقل لنا هذه الصورة النابغة الذبياني وهو يتحدث عن صحبة النسور والعقبان لهم في غزواتهم، إذ قال:

إذا ما غزوا بالجيش، حلّق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
يصاحبنهم حتي يُغرِنَ مغارَهم من الضاربات بالدماء، الدواربِ [10،ص10]

3.2 الصّاحِب جماداً: وبعد الحيوان قد يصاحب الجاهلي بعض موجودات بيئته من جماد كالسيف والقوس وما سواهما، فهذا الشنفري الأزدي، يستبدل صاحبه الذي لا يجازيه بالحسني ولا يجد في قربه ما يريحيه ويسلي همه بقلبه الشجاع وسيفه الصقيل والقوس القوية الطويلة استبدالاً موضوعيا يرتهن إلي مجريات واقعه الاجتماعي المعيش، فهم ثلاثة أصحاب يكتفي بهم عن مصاحبة غيرهم في حياته الواقعية، إذ يقول الشاعر واصفاً ذلك:

وإني كفاني فقد من ليس جازياً بحسني ولا في قربه مُتعلّلِ
ثلاثة أصحاب: فؤادٌ مشيعٌ وأبيض إصليتٌ وصفراء عيطلِ[11،ص56]

4.2 الذاتُ صاحباً: ومما صاحبه الجاهلي وغدا صاحباً واقعيا وحقيقيا هو (الذات) أي ذات الشاعر وما تشتمل عليها من أحاسيس، فالشنفري الأزدي يشير إلي سفره في ليلة نحس مخوفة لا يصحبه فيها إلا الحر الذي يشعر فيه في جوفه من شدة الجوع، وتجمّد جسمه من شدة البرد، وخوفه، وصوت الرعد، فهم ها هنا صحب الشاعر في ذلك السفر، كما أشار بقوله:

وليلة نحسٍ يصطلي القوس ربُّها وأقطعهُ اللاتي بها يُتنبّلُ
دعستُ علي غطشٍ وبغش وصُحبتي سُعارٌ وإزيزٌ ووجرٌ وأفكُلُ[11،ص63]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر الجاهلي مع الصّاحِب الواقعي غير البشري سواء أكان حيواناً أم جماداً أم ذاتاً أو غيرها؟ لم يراع ذكر التفصيلات إنما أجمل الإشارة إلي هذا النوع والصنف فقط فلم نجد حوارا مباشرا أو غير مباشر ولا حديثا سوي بعض الأوصاف المبتسرة والمجملة جدا ولعل ذلك يعود لاختلاف طبيعة الصّاحِب غير البشري فهو يقوم مقام الصّاحِب البشري في ذهن المتلقي وفي تأويل الاستجابة المتلقين أيضاً لكنه بالطبع لا يمتلك مزية التواصل والتفاعل والانسجام والمشاركة مع الشاعر.

3. الصّاحِب بناءً فنيّاً:

إن الصّاحِب الحقيقي كان قادرا علي إبهاج الجاهلي ومشاركته في مواقف حياتية عدة أضافت له شيئا من الارتياح والترويح عن النفس في ظل بيئة رتيبة انشغل فيها الإنسان الجاهلي بصراعه من اجل البقاء، ولعل هذا ما جعل موضوع الصُّحبة مدعاة إلي إحداث اثر جمالي تخييلي أدّي إلي جعلها مزية مخيلة في داخل البناء الموضوعي والفني للقصيدة الجاهلية بوصفها وسيلة يحقق ويتوصل بها ومن خلالها إلي غايات جمالية سامية. فقد ذهب الدكتور صلاح رزق الي ما قد يتاح للإنسان الجاهلي من أنس بالصحب والاجتماع معهم في مجالس عامرة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

باللهو أو المخاطرة، وهذا قد يفجر شاعرية الشاعر. [12،ص186] وإذا ما تفحصنا مقولات بعض النقاد العرب القدماء سنستشف منها الحكم بفنية الكثير من موضوعات الشعر الجاهلي التي تناولها وتداولها الشعراء الجاهليون في قصائدهم، فمقولة ابن قتيبة الذائعة الصيت عن مقصد القصيد والتي يري فيها ان ذكر الديار والبكاء والشكوي ومخاطبة الربّع واستيقاف الرفاق ثم اتصال ذلك بالنسيب وما يثيره من أشواق والآلام ومواجد إنما هم من أجل صرف وجوه سامعيه واستدعاء إصغاء الأسماع إليه [13، ص20].

ومثل ذلك ما ذهب إليه الناقد القديم ابن رشيق القيرواني فقد عدّ انفتاح نسيب القصيدة وسيلة الشاعر للولوج إلي جو القصيدة والتمكن منها [14،ص127].

فالناقدان القديمان هنا ابن قتيبة وابن رشيق يتفقان علي ان هناك محركات للموهبة وللتلقي الشعري وهذه المحركات هي من بؤر ومرتكزات القصيدة الموضوعية والمضمونية والتي منها بطبيعة الحال (الصُّحبة) و(الصّاحِب) بوصفه حيلة مخيلة وصناعة محكمة لخلق فضاء جمالي خاص. ولعل هذا ما جعل الدكتور شكري الفيصل يستنبط أن المطالع الغزلية في بنية الشعر الجاهلي هي صناعة شعرية فيها شيء من التعمد من لدن الشاعر [15،ص28–29] وهو نفسه ما دفع الدكتور نوري حمودي القيسي الي عدّ العاذلة ذلك البناء الموضوعي والمضموني في الشعر الجاهلي ضرب من ضروب الإسقاطات التي يُعبّر بها الشاعر عن داخله النفسي والوجداني والعقلي [16،ص68–69]. وهو كذلك ما بني عليه الدكتور حاكم الكريطي قناعته في إنكار الوجود الواقعي للعاذلة [17،ص158].

وتأسيساً علي ذلك فإننا نري مقومات الصناعة الفنية لموضوع (الصّاحِب) في الشعر الجاهلي بوصفه وسيلة وأداة تحضر فيه بقوة فهو لا يختلف عن بقية أدوات الشاعر الجاهلي الأخري أي الطلل والنسيب والعاذلة بل حتي الطيف...الخ. فهي جميعها برأينا وسائل طيعة وبواعث ومحركات في الفن الشعري الجاهلي، والصّاحِب من أطوع تلك الأدوات التي تحرك الموهبة الشعرية ليغدو في كثير من الأحايين مفتاحاً للقصيدة أو وسيلة وأداة ناجعة للخوض والولوج إلي بعض الأغراض والموضوعات الشعرية الأخري.

ومن التأمل في العديد من نصوص الشعر الجاهلي نجد ان فنية الصّاحِب والحبة بشكل عام تظهر في نمطين فنيين هما:

1- نمط افتتاح القصائد.

2- نمط التوسل للولوج الي الأغراض والموضوعات الأخري.

1.3 الصُّحبة مفتاحاً للقصيدة: تواتر ذكر الصّاحِب في مطالع القصائد الجاهلية، وتداوله الشعراء الجاهليون بشكل واسع حتي أصبح ينافس ذكر الطلل وبكاء الأحبة بل أصبح هو في بعض الأحيان وسيلة ناجعة ينفذ من خلالها الشاعر الي الطلل وأجوائه فاستيقاف الصحب للتعريج علي ذكر منازل الأحبة الظاعنين وتذكر عهدهم يبدو لنا جليّاً عند الكثير من الشعراء الجاهليين. فطالما تملك الشاعر هاجس الإفتتاح، لأنه يعي بحسه الجمالي المتفرد أن الخيط الأول من غزل فسيفساء الثوب يبدأ من المطلع وعلي منواله يكون الحبك، لذا كان المطلع من أهم عقبات الشعراء وهو العقبة الأولي بالفعل التي إذا ما تخطاها انبجست له عيون القصيدة وجرت ينابيعها، وهذا هو السبب

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

نفسه الذي دفع النقاد العرب القدماء إلي تسجيل ملاحظاتهم وتنظيراتهم علي المطلع والمستهل الشعري وأشاروا الي أهمية اعتناء الشعراء به وامتدحوا عذوبة ألفاظه وأشادوا بضرورة تحري دقة الأسلوب وجماله في الأبيات الأولي من القصيدة وحثوا الشعراء علي مراعاة حال السامع.

والشاعر الجاهلي كان يعي ذلك كله فسعي جاهدا من أجل خلق بدايات تحرك شاعريته وتستفز المتلقي إقبالا عليه، فالاهتداء إلي مفاتيح ذلك وسبله تحوز علي إعجاب سامعيه وتعلق نفوسهم، لذا كانت الحاجة إلي ابتكار صيغ فنية تلبي رغباته القائمة تلك.

والاتكاء علي تلك الصيغ كما يري الدكتور شكري الفيصل هو مفتاح لباب الدخول للجو النفسي المكتوم عند الشاعر [15، ص118] ونجد كذلك فيها مفتاحاً لشاعرية الشاعر نفسه. فهو ما إن يفتتح بتلك الوسيلة – أي (الصّاحِب) مثلاً – حتي تنفتق قريحته وتتهيكل وتتشكل قصيدته، فكأنه ملك زمامها بذلك الافتتاح.

فكأنّ السؤال وتحية الربع وبكاء الأطلال ولوم العاذلة صيغا فنية وجد فيها الشاعر الجاهلي ضالته، وكانت مخاطبة الصحب والتوجه لهم بالنداء والحديث وسيلة من تلك الوسائل التي دأب عليها شعراء الجاهلية ودارت علي ألسنتهم وضجت بها دواوينهم.

والمتأمل في الشعر الجاهلي يجد ذكر الصّاحِب ومرادفاته الأخري المعبرة عنه ولاسيما لفظة (الخليل) حاضراً في بدايات قصائدهم كصيغة فنية شائعة مشفوعة بأساليب الطلب كالأمر والاستفهام والنداء وغيرها.

فصيغة (تبين صاحبي) أو (تبين خليلي) دارجة جدا وعلي سبيل المثال لا الحصر نجد الشاعر عبيد بن الأبرص يفتتح قصيدته بمشهد الظعن، ومفتاح الحديث هو التوجه الي الصّاحِب ليري ذلك الظعن ويتبين أمره، إذ يقول:

تبصّر صاحبي أتري حمولاً تساق كأنها عومُ السّفين [8،ص145]

فعبيد يطلب من صاحبه مازجاً بين الأمر والالتماس والاستفهام، إذ كان يري حمول الحبيبة الظاعنة علي ناقة تعوم في الصحراء كعوم السفن.

ومثل ذلك قوله مستعيضاً عن لفظة الصّاحِب بمرادفاتها (الخليل):

تأمّل خليلي هل تري من ظعائنَ يمّانية قد تغتدي وتروح [8،ص46]

وقوله:

تبصّر خليلي هل تري من ظعائن سلكن غُميراً دونهن غموضُ [8،ص88]

وزُهير صنع الصنيع نفسه حينما توجه لخليله مستفهماً منه عن رؤية الظعائن، إذ يقول:

تبصّر خليلي هل تري من ظعائن تحملن بالعلياء، من فوق جرثمِ [9،ص11]

وقوله:

تبصّر خليلي، هل تري من ظعائن كما زال في الصبح الأشاءُ الحواملُ [9،ص263]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

فزُهير بعد أن شغله البكاء عن النظر إلي الظعائن المتحركة كتحرك النخيل الصغار الحامل للثمار في وقت الصباح، توجّه لخليله ليري عنه تلك الظعائن ويراقبها نيابة عنه.

والتعويل علي هذه الوسائط الفنية في هذا المطلع وغيره من المطالع عند الشعراء الجاهليين أمر ذائع الصيت، يُنظرُ علي سبيل المثال لا الحصر[2، ص 65 و 98].

وقد يلجأ الشاعر إلي مناداة الصّاحِب مرخماً أو غير مرخم – أو الخليل– كقول عبيد بن الأبرص:

يا صاحِ مهلاً أقلّ العذْل يا صاحِ ولا تكونّن لي باللائم اللّاحي [8،ص49]

وقول الأعشي:

أصاحِ تري ظعائن باكراتٍ عليها العبقريّة والنّجودُ [7،ص67]

وقول عبيد بن الأبرص مستعيضاً عن لفظة الصّاحِب بلفظة (الخليل):

يا خليلي أربعا واستخبرا الـــ منزلَ الدارسَ من أهلِ الحلال [8،ص120]

وقول طرفة بن العبد:

يا خليلي قفا أخبركما بأحاديث تغشتني وهمّ

وأبلغا خولة إني آرقٌ لا أنام الليل من غير سدم [18،ص165]

وقول امرئ القيس مخاطباً خليليه، دالاً علي قربهما من نفسه بحذف حرف النداء جاعلاً ذكرهما وسيلة للحديث عن أم جندب في افتتاح القول الشعري:

خليلي مُرّا بي علي أم جُندبِ نقضّ لبانات الفؤاد المُعذّبِ [2،ص64]

وفضلا عن صيغ الطلب والأمر والاستفهام والنداء الذائعة في أشعار الجاهليين، نجد صيغة أخري لتمثيل فنية ذكر الصّاحِب والافتتاح به في مطلع قصائدهم، لا تقل في شهرتها وجريانها علي ألسنتهم عن سابقاتها، وهي صيغة استيقاف الصحب، فقد وجد أكثر الشعراء الجاهليين ضالتهم في هذه الصيغة فأوقفوا أصحابهم علي منازل الأحبة وعلي ديارهم وأطلالهم الدارسة، ومن أمثلة هذا التوسل الفني قول امرئ القيس المشهور في مفتتح معلقته:

قفا نبكِ من ذكري حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوي بين الدّخولِ فحوملِ [2،ص29]

وقوله:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسي وتجلّدِ[2،ص31]

وقوله:

قفا نبكِ من ذكري حبيبٍ وعرفانِ ورسم عفت آياته منذ أزمانِ[2،ص173]

وقول دريد بن الصمة في مطلع إحدي قصائده:

حيّوا تُماضِر وأربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي[19،ص138]

وقوله:

وقفتُ بها سَراة اليوم صحبي أُكفكِفُ دمعَ عيني أن يسيلا [18،ص51]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وقد جاء الأعشي بمعني مغاير نوعاً ما، إذ تحسّر علي عدم وقوف أصحابه علي منازل أحبته بعد أن ناداهم وطلب منهم الوقوف، إذ يقول:

كانت وصاة وحاجات لنا كففُ لو أنّ صحبك إذ ناديتهم وقفوا [7،ص168]

وقد مال بعض الشعراء إلي التعبير عن معني الوقوف نفسه ولكن بلفظة مختلفة هي (حبستُ) كقول عبيد بن الأبرص:

حبستُ فيها صِحابي كي أُسائلها والدمع قد بلّ مني جيب سِربالي [8،ص108]

بينما أضمر النابغة الذبياني رغبته في الوقوف لأن أصحابه علي عجل في لحظة الرحيل تلك، إذ يقول:

رأيتُ نُعماً وأصحابي علي عجلٍ والعيسُ للبين، قد شُدّتْ بأكوارِ [10،ص49]

فسؤال الصّاحِب ومناداته والتوجه إليه لم تكن وقوفاً كما رأينا في النصوص الشعرية السابقة غاية مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة يُجري بها الشاعر الكلام عن مبتغاه، وهو تقليد فني معهود لديهم، وهذا ما نلمحه من قول بشر بن أبي خازم:

أُسائِلُ صاحبي ولقد أراني بصيراً بالظعائن حين ساروا [20،ص48]

فالأمر إذا لا يعدو كونه وسيلة فنية ممزوجة ببعض الظلال النفسية الخفيّة.

2.3 الصّاحِب وسيلةً للدخول إلي أغراض وموضوعات القصيدة:

إن فنية الصُّحبة والصّاحِب لم تكن حكراً علي مُفتتح القصائد ومطالعها ومقدمتها، فقد وعي الشاعر الجاهلي بحسّه الفني الرفيع، وأدرك أن الصّاحِب الذي اتكأ عليه في الافتتاح والبدايات ما زال وسيلة ناجعة يمكن الاعتماد عليها وهو يتناول محطات القصيدة الأخري لذا وجدنا للصاحب وجوداً فنياً خارج مقدمات القصائد الجاهلية. فتارة نجد ذلك الوجود الفني ملازماً للأغراض الشعرية الرئيسة من مديح وفخر وغزل وهجاء ورثاء وحكمة بل في الوصف أيضاً وتارة نجد الصّاحِب حاضراً في موضوعات شتي تخدم التعبير الشعري والصور التي يشكّلها الشعراء في داخل تلك الموضوعات.

فمن الأغراض التي قصد إليها الشاعر من خلال الصُّحبة غرض المديح كقول دريد بن الصمة وهو يسوق مدحته في سياق مناداته لصاحبه:

يا ليت شِعري مَن أبوه وأمه يا صاحِ من يكُ مثله لم يُجهلِ [19،ص152]

وهذا النابغة الذبياني يُعزّز مديحه لعمرو بن الحارث الغساني بالقَسَم الذي يتوجّه به لصاحبه، إذ يقول:

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالده ليست بذات عقاربِ

حلفتُ يميناً غير ذي مثنويةٍ ولا علم، إلا حُسنُ ظنٍّ بصاحبِ [10،ص10]

ومثلهم صنع الأعشي حينما أراد أن يؤكد صفة الشجاعة في ممدوحه حين قال:

فأسمع أولي الدعوتين صِحابه وكان التي لا يسمعون لها قدِ

بأصدق بأساً منك يوماً ونجدةً إذا نامت البطال في كل مشهدِ[7،ص74]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

كما جعل من الصُّحبة برهاناً يؤكد ما ينماز به ممدوحه من حسن الخصال، فالصُّحبة هنا بمعني المعرفة والتجريب الذي يبعث علي اليقين بما يذكره الشاعر لممدوحه إذ يقول الأعشي:

وصحبنا من آل جفنة أملا كاً كراماً بالشّام ذات الرّفيفِ [7،ص174]

وكذلك احتذي الصنعة نفسها زُهير بن أبي سُلمي أراد أن يمتدح شجاعة ممدوحيه فنسبهم إلي صاحب شجاع مقدام هو زيد الحيل الطائي، فيكفي أن يقول عنهم أصحاب زيد حتي يتيقن السامع بسالتهم في الحروب وتنكيلهم بأعدائهم، وهذا ما صوّره زُهير لنا بقوله:

أصحاب زيدٍ وأيام لهم سلفتْ من حاربوا أعذبوا عنه بتنكيلِ[9،ص98]

وقوله موظّفاً الأسلوب نفسه:

فتي، لا يرزأ الخُلّان شيئاً ولا يبخلُ، بما حوت اليدانِ[9،ص289]

وكذا الأمر نفسه مع الشاعر الأفوه الأودي حينما أوجز وأجمل مدحه لممدوحه بأن جعل خلّه راضياً عنه فالشاعر استبدل الاسترسال بذكر الخصال الحسنة وتعدادها بهذه القالب اللفظي الدال الموجز علي وثاقة وتأصل تلك الصفات فيه، إذ قال:

الخِلُّ راضٍ شاكرٌ في عهدهِ وعدّوه المقهور منه آذِ [21،ص69]

ومثله قول النابغة الذبياني مادحاً ممدوحه:

فتي، تمّ فيه ما يسرّ صديقه علي أنّ فيه ما يُسيءُ المُعاديا [10،ص127]

وحينما أراد دريد بن الصمة أن يمدح يزيد بن عبد المدان أثبت له صفة الكرم بأن جعل نزوله له به دون صحبه علامة علي تميّزه بتلك الصفة، إذ قال:

حلّلتُ به دون أصحابهِ فأوري زناري لمّا قدح [19،ص51]

وجلُّ ما أثبته الشعراء لممدوحيهم من خلال التوسل بالصّاحب، فقد أثبتوه لأنفسهم من خلاله فخرهم كذلك، فحماية الصّاحب وإبعاد الخطر عنه دليل علي شجاعة تأبط شرّاً، إذ يقول موضحاً ذلك:

وأخطأهم قتلي ورفّعتُ صاحبي علي الليلِ لم تؤخذ عليّ المخاتِلُ[6،ص62]

كما افتخر تأبط شرّاً بقوته وإسراعه وسبقه لغيره في أداء العمل واعتلاء قمم الجبال، إذ قال:

بادرتُ قُنتّها صحبي وما كسلوا حتّي نميتُ إليها بعد إشراقِ [6،ص50]

وتأبط شرّاً يرسم لمتلقيه صورة جمالية عن نفسه يبرز من خلالها ما ينماز به من خلال نفسية حسنة وطباع كريمة، وليس هناك أجدي وأنفع من ذكر المواقف مع الأصحاب، إذ يقول في ذلك أيضاً:

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة أو اثنين مِثْلَينا فلا أُبْتُ آمنا

وما كنت أباءً علي الخلّ إذ دعا ولا المرء يدعوني مُمِرّاً مُداهنا [6، ص104]

وطرفة بن العبد يفتخر بكونه ليس ضعيفاً مسكيناً فيخشي عداوة كثير من الأصحاب أو عداوة الرجل المنفرد، ويتضح ذلك في قوله:

ولو كنتُ وغلاً في الرّجال لضرّني عداوة ذي الأصحاب والمتوحّدِ [18،ص72]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وقد أوجز طرفة بن العبد فخره بنفسه في موطن آخر خير إيجاز حينما قال:

وإنّي لحُلْوٌ للخليلِ وإنني لمُرٌّ لذي الأضغان أبدي له بُغضي [18، ص 113]

فالصّاحب والخليل يجد حلاوة مصاحبته لما يلمسه فيه من طباع وخصال حميدة. وأما زُهير بن أبي سُلمي فقد افتخر بأنه لا يتعرض بالإساءة للصديق ولا يهجوه، إذ قال:

أبيتُ فلا أهجو الصديق ومن يبعْ بعرضِ أبيهِ، في المعاشر يُنفقِ

أكف لساني عن صديقي، وإن أُجأْ إليه فإنّي عارقٌ، كلَّ مُعرقِ[9، ص 257 و 261]

فإن اضطر لهجائه، فهجاؤه شديد كمن يُعرق أي يُزيل اللحم عن العظم. وأما الأفوه الأودي حينما أراد أن يُبرز سماته اختار صورة قائمة علي المقايسة بينه وبين صاحبه،فهو يؤثر المجد والسؤدد وصاحبه يؤثر الراحة، دالاً علي ذلك بقوله:

خليلانِ مختلفٌ نجرنُا أُحبُّ العلاءَ، ويهوي السّمنْ[21،ص107]

وأما في الهجاء فقد وظّف الشعراء الصُّحبة والصّاحب للإنعام في الانتقاص من المهجو وإظهاره بصورة من الضعف والذل والخواء كما فعل تأبط شرّاً، فمهجوه من الذل كالجدي الذي يربط في حفرة لصيد السباع لذا فهو يصرف عنه صحبته لأنه غير مستحق لها، فيقول مُعبّراً عن ذلك:

أكفكفُ عنهم صُحبتي وإخالهم من الذُّلِّ يعراً بالتلاعةِ أعفرا[6،ص27]

وطرفة حينما أراد أن يذم يهجو من غدر به وأساء إليه بشدة اختار صورة العدوّ في ثياب الصديق ليظهر خسته وغدره وجبنه وقبح صنعه فقال:

عدوٌ صديق عابسٌ مُبتسّمٌ يُعاملني بالمكرِ حينَ أُوافقهْ

يُجاملني جهراً إذا ما لقيتهُ وفي الصّدرِ تهدأ هديراً شقاشقهْ

سأصرفُ نفسي عن هوي كل غادرٍ وأعرض أخلاقه وأُخارقُهْ[18،ص133]

ومثله هجاء الأعشي لأصحابه فإذا ما عدّ الأصحاب والأصدقاء فهم مخادعون يملؤهم الحقد والضغينة، لذا فهو يهجوهم مصوراً ذلك بقوله:

فهل أنتم إلّا عبيداً، وإنّما تعُدّونَ خوصاً في الصديق لوامِصا[7،ص154]

وفي الحكمة كان الصّاحب حاضراً ولاسيما مع ضدّه العدوّ، فالصديق والعدو حاضران علي نحو تلازمي في مواعظ الجاهليين وحكمهم، كقول زُهير بن أبي سُلمي:

ومن يغتربْ يحسب عدوّاً صديقه ومن لا يُكرم نفسَه لا يُكرّم [9،ص28]

وقوله أيضاً:

متي تكُ في صديقٍ أو عدوٍّ تُخبّرك الوجوهُ عن القلوبِ [9،ص215]

وقد أحسن الشاعر الجاهلي في استثمار موضوع الصُّحبة كذلك في فن الوصف، فقد رافق الصّاحب أوصافه وأحاديثه عن الفرس أو الناقة أو الصيد أو في وصف الخمرة وفي مجالسها أو في المطر والسيل جاعلاً الصّاحب جزءاً من الصورة الشعرية في كل تلك الموضوعات.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

فمن استثماره للصاحب في صور الصيد قول الأعشي واصفاً سرعة الصياد وخفة حركته وهو يبغي إقناع صحبه وإتحافهم بصيده إذ يقول مصوّرا لنا ذلك المشهد:

حتي إذا ذرّ قرنُ الشمس صبّحها ذؤال نبهان يبغي صحبه المُتُعا
بأكلُبٍ سراع النبلِ ضاريةٍ تري من القدِّ في أعناقها قِطعا [7،ص164]

وهذا امرؤ القيس يصوّر لنا تنادي صحابه لصيد النعاج واستعداده لطلبها علي ظهر فرسه، إذ يقول:

فطالَ تنادينا وعقدُ عِذاره وقال صحابي قد شَأوْتَك فاطلُبِ[2،ص69]

وبعد الصيد يأتي مشهد الشواء الذي لا يكتمل إلا بوجود الصحب كنهاية لرحلة الصيد الشاقة، ويبقي الصّاحِب فاعلاً في صورة الشعراء وفي مخيلتهم بوصفه أداة ووسيطاً حيوياً لفاعلية الجذب الشعري وتلقيه، فامرؤ القيس ينقل لنا في بيته الشعري:

وظلّ صِحابي يشتوون بنعمةٍ يصفّون غاراً باللكيك المُوشّقِ[2،ص137]

فالصحب منشغلون بين شواء وبين صف اللحم المطهو بماء وملح في الغار يجففونه ويحملونه معهم.

وغالباً ما يكون الصّاحِب جزءاً من صورة وصف الفرس أو الناقة كقول الشنفري الأزدي واصفاً فرسه:

كأنّ قوائم النّحّام لمّا تحمّل صُحبتي أُصُلاً محارُ [11،ص89]

فهو يشبه قوائم الفرس بالصدف في العشي عند رحيل الصحب. والأعشي يسوق وصف ناقته علي لسان أصحابه، فهو يتخذهم وسيلة ليرسم لنا صورة لتلك الناقة المُسرعة ليلاً كأنثي الحمار التي لا ولد لها، إذ يقول:

يُشبهها صحبتي مُوْهِناً إذا ما استتبت أتاناً نحوصا [7، ص 156]

ومن الموضوعات التي يعمد الشاعر في تناولها من ضمن إطار وسائطية الصّاحِب وبوصفه أداة للتغريض والانتقال بالاعتماد عليه هو وصف البرق والمطر والسيل، كقول امرئ القيس:

أصاحِ تري برقاً أُريكَ وميضهُ كلمحِ اليدينِ في حبيّ مكلّلِ
قعدتُ له وصحبتي بين ضارجٍ وبين العُذيبِ بعد ما متأملي[2،ص59 و60]

وقوله:

قعدتُ له وصحبتي بين ضارجٍ وبين تلاعٍ يثلثَ فالعريضِ[2، ص 126]

ومثله قول الشاعر عبيد بن الأبرص مُخاطباً صاحبه:

صاحِ تري برقاً بِتُّ أرقُبُه ذات العشا في غمائم غُرِّ[8، ص73]

ومن الموضوعات الشعرية التي وظّفها الشاعر الجاهلي من ضمن ثيمة (الصّاحِب) وجعلها جزءاً من صورته الشعرية هي (الخمر). فقد كانت الخمرة من أدوات ووسائل الشاعر فنيّاً، فهو يتوجه إلي الصّاحِب نفسه يصفه ويحاوره وهو ينادمه ويشاركه في مجلس معاقرته للخمرة وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر الجاهلي، فمنها علي نحو الإشارة والإجمال لا الإحاطة والشمول قول طرفة بن العبد:

نداماي بيضُ كالنجومِ وقَينَةٌ تروحُ علينا بينَ بُردٍ ومُجسدِ [18،ص61]

فهم عند طرفة بيض كالنجوم، وعند الأعشي بيض الوجوه كرام فحول:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ونَدامي بيضُ الوُجوهِ كأنّ الـــــــ شّربَ منهُم مصاعبٌ أفناقُ [7، 196]

وامرؤ القيس يجد في مجالس الصُّحبة وهم يحتسون الخمر ويتسامرون في ما بينهم واحدة من مُتع ولذائذ الحياة ومباهج العيش الرغيد، فالخمرة وحدها بلا نديم أقل بهجة، إذ يصوّر لنا ذلك قائلاً:

وأصبحتُ ودّعتُ الصِّبا غيرَ أنّني أراقبُ خلاتٍ من العيشِ أربعا

فمنهُنّ قَولي للندامي ترفّقوا يداجون نشاجاً من الخمرِ مترعا[2، 129]

4. الخاتمة:

- إنّ الدلالة اللغوية للفظة الصّاحِب ومرادفاتها الأخري، أي الخليل والصديق والرفيق والقرين تشترك في الإشارة إلي معني الصلة والملازمة المكانية والزمانية والنفسية.
- وردت لفظة الصّاحِب في صورها المختلفة فعلاً ومصدراً واسماً مفرداً أو مثني أو جمعاً كلّاً بحسب السياق الذي ترد فيه عند الشعراء الجاهليين.
- اتسع نطاق مفهوم الصُّحبة ليدخل فيه ما هو مادي ومعنوي وما هو حقيقي مع ماهو متخيل.
- تنوع حضور الصّاحِب في الشعر الجاهلي بين الحضور الحقيقي الواقعي وبين الحضور الفني في بنية القصائد.
- كان الصّاحِب علي الصعيد الفني أحد مفاتيح القصيدة الجاهلية، وله وجوده القار في مطالعها ومقدماتها، فهو وجود يكاد يطاول وجود الظعينة والطلل والعائلة والخمر في نسيج القصيدة الجاهلية.
- اتسمت مفردة الصّاحِب بمرونة دلالية وفنية، ساعدت علي تطوير مهارات الشاعر الجاهلي لخدمة أغراضه وموضوعاته الشعرية من مديح وفخر وهجاء ووصف..الخ. فما عادت حكراً علي المطالع فقط.
- برز الصّاحِب بوصفه حيواناً أو جماداً أو ذاتاً في الشعر الجاهلي كنمط موضوعي ومضموني استبدالي عن الإنسان بوصفه صاحبا للتسلية وملء الفراغ والهروب من الواقع الحياتي المعيش.
- عمل (الصّاحِب) علي تغريض الموضوعات الشعرية والانتقال إليها في بنية القصيدة الجاهلية من خلال توظيفه كأداة ووسيط ووسيلة لتحقيق غايات جمالية علي نحو البناء والدلالة والتلقي.
- شاع تناول (الصّاحِب) فنياً في أغراض شعرية بعينها من مثل المديح والفخر والوصف.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

مصادر البحث ومراجعه:

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط 1، د.ت.

[2] ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[3] إنسانية الفكر في الأدب واللغة –قراءات في أعمال العلامة الدكتور علي القاسمي، د.نزهة بو عيادة وآخرون، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان– الأردن، 2020.

[4] الصداقة من منظور علم النفس، د. فضيلة عرفات، مقال من النت، www.alnoor.se 30. 6. 2010

[5] ديوان السُليك بن السلكة، إعداد وتقديم: طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1996.

[6] ديوان تأبط شرّاً، إعداد وتقديم: طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1996.

[7] ديوان الأعشي، شرح د.يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، د.ط، 2005.

[8] ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر بيروت، د.ط، 1998.

[9] شعر زُهير بن أبي سُلمي، صنعة الأعلم الشمنتري، تح: د.فخر الدين قباوة، المطبعة العلمية، دمشق، د.ط، 2002.

[10] ديوان النابغة البياني، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

[11] ديوان الشنفري الأزدي، إعداد وتقديم، طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1999.

[12] الشعر الجاهلي –السياق والملامح، أهم القضايا، ابرز الأعلام –، د.صلاح رزق، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 2005 ،

[13] الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الثقافة، بيروت–لبنان، د.ط، 1964.

[14] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972.

[15] تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلي ابن أبي ربيعة، د.شكري الفيصل، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، د.ت.

[16] دراسات في الشعر الجاهلي، د.نوري حمودي القيسي، جامعة بغداد، ط1، 1972.

[17] أثر المدن في الشعر الجاهلي، د.حاكم حبيب الكريطي، مطبعة أمل الجديدة، سوريا –دمشق، ط1، 2016.

[18] ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح: عبد القادر محمد، مراجعة: أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربي، سوريا–حلب، ط1، 1999.

[19] ديوان دريد بن الصمة، تح: د.عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

[20] ديوان بشر بن أبي خازم، تح: د.عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط 2، 1970.

[21] ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق: د. محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1998.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq